



السنوات، فهي لم تحظ بالرعاية الواجبة، ويظل مصيرها مهدداً. وقد خيمت نُذر المخاطر الكبيرة فوقها في عام 1990. فطبقاً للمعاهدة الموقعة بين الجمعية البحثية للمشروعات والجمعية العلمية-الدراسية «للمشروعات المائية» للاتحاد السوفيتي، وبين إيران، كان واجبا منذ عام 1975 البدء في تشييد منشأتين مائيتين هما «خودافرين»، و«قيز قاماسي» في منطقة فج جودافرين. وقد أدى البناء الذي بدأ في عام 1990 إلى إلحاق المخاطر ليس فقط بجسرى خودافرين، بل أيضاً بالقرى المجاورة القديمة، والعديد من المعالم الأثرية والآثار المعمارية الواقعة في وادي أراز. وأثار ذلك الأمر حينذاك ضجة عاصفة بين الرأي العام في الجمهورية. ومع ظهور قضية قاراباغ واحتلال القوات العسكرية الأرمينية للأراضي الأذربيجانية، بما فيها منطقة جبرائيل حيث تقع جسور خودافرين، توقف مشروع البناء. ومنذ حوالي عشر سنوات، تقع جسور خودافرين، مثلها في ذلك مثل العديد من الآثار الأخرى، تحت نير الإرهاب «الثقافي» الأرميني. وبغض النظر عن أن تلك المنطقة تمثل أرضاً محتلة، إلا أن الحكومة الإيرانية في عام 2000، طرحت من جديد قضية بناء المنشآت المائية، ولكن في هذه المرة تلقت رفضاً حاسماً من حيدر علييف رئيس جمهورية أذربيجان.

وينبغي على المجتمع الدولي بأسره أن يولي اهتمامه نحو مصير جسور خودافرين الواقعة في «الأسر» لدى الإرهابيين الأرمين، وأن تتحمل المنظمات الدولية مسئولية الحفاظ عليها.

خودافرين في القرن السابع، ولم يذكر شيئاً حول أي جسر آخر. أما جسر خودافرين الصغير، فقد دُمّر بالكامل تقريباً، ولم يبق منه سوى الأجزاء الثلاثة الوسطى. لذلك، يطلق عليه العامة اسم «سينينج كوربيو» («الجسر المكسور»). ويبلغ طول الجسر حوالي 130 متر؛ وعرضه 6 متر؛ وارتفاعه فوق مستوى سطح الماء 12 متر. وتأخذ خطوط الأقواس الجانبية الشكل النصف دائري تقريباً. وتشهد الأساسات القوية للجسر والأقواس التي تخرج من الماء، والمتضررة بشدة نتيجة تعرضها للتيارات المائية الساحلية، على الصورة الرائعة الأولية لهذا الأثر. وقد جرى تدمير الجسر الطائر الحادي عشر بهدف منع قدوم القوات المعادية، ولكن بعد ذلك، وخلافاً لجسر خودافرين الكبير، لم يجر ترميمه وإعادة بنائه. وبغض النظر عن العدد الصغير للفراغات والطول القصير نسبياً، إلا أنه بفضل مواد البناء المستخدمة والشكل المعماري المميز، فإن «الجسر المكسور» ما زال يؤثر الانطباعات القوية حتى في هيئته المهذمة. وهذا الجسر مثله مثل العديد من الآثار القديمة، يتمتع بالجلال والمهابة التي تشع حتى من بين أطلاله.

ويتسم التصميم الهيكلي للجسرين بالنمط المعماري التقليدي المميز للقرون الوسطى- شكل الأقواس المنحنية للفتحات التي تركز إلى المصدات الثقيلة لتيارات المياه والأساسات القوية. وكان هذا التصميم مضموناً وأمناً بالدرجة الكافية كي يتحمل الجسر حشود الناس، وفرق الخيالة العسكرية التي تعبره.

بالإضافة إلى الهيكل البنائي الهندسي المتين لجسور خودافرين، فهي تجذب الاهتمام بخصائصها الفنية والجمالية المعبرة. وقد استطاعت مهارة المهندسين المعماريين تحويل هذه البناء المشيد للأغراض النفعية العملية إلى صرح معماري ضخم.

وترتبط جسور خودافرين بصورة لصيقة بالأحداث التي تتمتع بالأهمية العالمية، حيث أنها تمثل منشأة معمارية-هندسية رفيعة المستوى، وأخيراً فهي تشكل وحدة منسجمة مع الطبيعة المبهرة المحيطة بها. وتتيح لنا كل هذه الخصائص، أن نضع هذه الجسور ضمن الآثار ذات القيمة الرفيعة. ولكن للأسف، وعبر العديد من

الأقواس مصنوعة في البداية من الأحجار. أما بقية أجزاء الجسر فقد شُيّدت من الزلط والصخور الخام. كما تم صنع سور القسم العابر العلوى من الطوب. وقد أكسب المزج بين ملمس السطح والألوان في مواد البناء المستخدمة، بنية معمارية وفنية فريدة تميز بها جسر خودافرين الكبير.

واليوم، ما زال الجسر الطائر الخامس عشر في حالة صالحة للعمل. وقد جرى ترميم هذا الأثر العريق بعد أن تعرض للتدمير عدة مرات. وكان آخر أكبر الأضرار التي تعرض لها في عهد القاجاريين- أثناء مرحلة تشكيل الإمارات في شمال أذربيجان. وحول هذا الصدد، كتب المؤرخ أ. باكيخانوف قائلاً: «عندما أراد أقا محمد خان قاجار في عام 1795 احتلال قاراباغ، قام بترميم جسر خودافرين، الذي دمره ابراهيم خان من قبل». كما يؤكد المؤرخ الإيراني ز. منصورى بدوره، على أن أمير قاراباغ ابراهيم خليل جوانشير، قام بتدمير جسر خودافرين بهدف منع هجوم جيش أقا محمد خان قاجار. ويكتب المؤلف قائلاً: «أمر الشاه ببناء معبر جديد بالقرب من جسر خودافرين، وترميم الجسر القديم. ولم يستطع رجال جوانشير تدمير الأساسات، وهدموا فقط أقواس الجسر. وأمر الشاه ببناء الجسر، واستخدام أفضل مواد البناء فقط في تشييده». وقد تم تدمير جسور خودافرين في عام 1797 قبل الحملة العسكرية الثانية التي قام بها محمد خان في القوقاز. والحالة الراهنة لجسر خودافرين الطائر الخامس عشر، تؤكد على المعلومات التي ذكرها المؤرخون. وفي فترة لاحقة، جرى ترميم الأجزاء العلوية من أقواس الجسر وبنائها بالطوب، وهي تختلف بوضوح عن بقية الأجزاء القديمة للجسر.

يقع الجسر الطائر الحادى عشر، على مسافة 750 متراً نحو الشرق من جسر خودافرين الكبير. وقد جرى تشييد الجسر برمته وتبليطه من كتل الحجر الجيرى المنحوتة بصورة جيدة. ويرى الباحثون أن هذا الجسر قد شُيّد فوق أطلال الجسر القديم في عهد الإلخنديين (نهاية القرن الثالث عشر). ولكن في وصفه لكل الأحداث الهامة التي جرت حتى فترة الأربعينات من القرن الرابع عشر، يشير مؤرخ ذلك العصر، إلى إعادة بناء جسر واحد كبير فقط من جسور



جسر جديد أو ترميم القديم.

وأخذاً بشهادة العالم العثماني مُنجم باشا، فإن الحاكم الأذربيجاني فازل الأول شيدالى، قام في عام 1027 ببناء جسر ضخم ومتين عبر نهر أراز. وطبقاً لرأى المؤرخ ف. مينورسكى، فإن هذا الجسر الذي أطلق عليه مُنجم باشا اسم «أسارنظيم» («العمل الكبير»)، هو جسر خودافرين الطائر الخامس عشر. ويؤكد المؤرخ السلجوقى صدر الدين على الحسينى، أن السلطان ألب أرسلان، بعد عودته من الحملة على تغليس في عام 1068، استطاع عبور نهر أراز «بدون سفن ولا بحارة»، ووصل إلى قرية لاريانيس (لارجان الحالية، التي تقع جنوب فج خودافرين). ولكن المؤلف لا يذكر شيئاً حول جسور خودافرين. واستناداً إلى كل تلك المعلومات وإلى الخصائص المعمارية والتصميمية للبناء، فهناك بعض العلماء الأوروبيين والأذربيين، يرون أن جسر خودافرين الطائر الخامس عشر، قد تم تشييده أثناء فترة أوج ازدهار دولة الأتابكة في القرن الثانى عشر.

لقد تم وضع أساسات جسر خودافرين الكبير فوق الصخور النهرية، ولذلك فإن أبعاده تتمتع بأطوال متباينة. وقد وُضعت طبقاً لطبيعة التضاريس القائمة، لذلك لم يكن تصميم الجسر مستقيماً، بل سار في انحناء محدد. ويبلغ طول الجسر - 200 متر تقريباً، وعرضه - 4,5 متر، وأقصى بُعد له - أكثر من 10 متر. كما جرى تشييد مصدات التيارات المائية من الحجارة المنحوتة بصورة جيدة. وتأخذ كل أقواس الجسر شكل القباب، المميّزة لمعمار العصر الإسلامى. وكانت أطر

منهما على موقع تشييده. وهكذا، ففي القرون القديمة والوسطى، تمثل الشرط الهام لبناء الجسر في توافر الصخور النهرية اللازمة لركائز التصميم. وكانت الأعمدة الارتكازية، ومصدات التيارات المائية، المشيدة فوق الصخور القوية المتينة، هي الضمانة لصلابة الجسر، الذى تعبره حشود الناس والقوافل التجارية المحملة بالأثقال. وقد جعل توافر الصخور النهرية الضخمة فى فج خودافرين من هذا الموقع، موقعا ذا جدوى شديدة لبناء الجسر. ولم يسلم من الجسور العديدة المشيدة على نهر أراز، سوى جسور خودافرين فقط، وذلك بفضل الموقع الملائم لها.

ولا تضم المصادر التاريخية سوى القليل للغاية من المعلومات حول جسور خودافرين، مثلها فى ذلك مثل العديد من الآثار المعمارية الأخرى فى أنريجان. وبسبب عدم وجود أية كتابات حول البناء، فلم يصبح بالإمكان تحديد التاريخ الدقيق لبناء الجسور. وباعتبارها آثارا تاريخية معمارية نفيسة، فإن جسور خودافرين قد شُيدت فى العصور القديمة بعد. كما توجد رواية أخرى، تذكر أن أساسات تلك الجسور التى مثلت معبرا نهريا شهيرا، قد تم وضعها فى زمن أرات (القرن 4 قبل الميلاد).

وتعود أقدم المعلومات المتاحة لدينا حول جسور خودافرين، إلى المؤرخ والجغرافى حمد الله القزوينى. ففي القرن الرابع عشر كتب قائلا: «بالقرب من زنجيزور، وعبر نهر أراز يقع جسر جودا-أفرين، الذى قام بتشيينه فى العام 15 الهجرى (عام 636) بكر ابن عبد الله، أحد أصحاب الرسول محمد». هكذا، وطبقا لأوامر الخليفة عمر، فى عام 643-644، قام القائد العسكرى بكير ابن عبد الله، بتنظيم حملة عسكرية على أنريجان. وفى مؤلفه بعنوان «جولستان- إيريم» («زهرة الجنة»)، قام مؤرخ القرن التاسع عشر أ. باكيخانوف، بوصف الوقائع الجارية فى عام 22 الهجرى (عام 644): «بعد احتلاله إقليم موجان، قام بكير ابن عبد الله ببناء جسر خودافين الذى يعبر نهر أراز». واستنادا إلى تلك المعطيات التاريخية، افترض الباحثان أ. سلام زاده، ومعه ك. محمد زاده، أنه فى القرن السابع، ولتوفير حرية الحركة للقوات العربية عبر فج خودافرين، تم بناء



بالنسبة للنظام القديم فى تشييد الجسور. ويشهد هذان الجسران العملاقان الطائران الخامس عشر والحادى عشر، على أن فج خودافرين الواقع عند نهر أراز، كان يمثل المعبر الرئيسى. وهكذا، فقد لعب معبر خودافرين الواقع على الطرق العابرة للقارات، دورا هاما فى العلاقات الداخلية والخارجية بين الدول. وتمثل جسور خودافرين واحدة من الحلقات الرئيسة لطريق الحرير العظيم، كما اكتسبت أهمية دولية كبرى. وصارت هذه الجسور بمثابة الطريق الحيوى لهجرة مختلف القوى والقبائل، الوافدة من الجنوب إلى أران وقاراباغ. وتشير المصادر أيضا إلى الأهمية العسكرية-الاستراتيجية الكبيرة لهذه الجسور. وتشهد الأحداث التاريخية على قدرة عبور الأعداد الكبيرة من القوات العسكرية خلال زمن قصير عبر جسور خودافرين.

بادئ ذى بدء، فإن الجسر هو- تصميم هندسى. وفى العصور القديمة، اعتمدت الصلابة وطول العمر الافتراضى للجسر فى الكثير



عدد المدن المذكورة، إلا أنه في الأزمنة الغابرة، قامت على ضفتي النهر شبكة ممتدة من القرى. واستنادا إلى أحد الكتاب العرب الآخرين، كتب ياقوت الحموي: «في سهوب بالاساجان، حيث يأتي نهر أراز، توجد خمسة آلاف قرية مهجورة، باقية من أثر دمار الجدران والبنيات، وظلت قائمة حتى وقتنا هذا. ويقال أن تلك القرى كانت تعود إلى حكام أراز الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم». وكان تشييد الجسور عبر أراز يمثل بالبداية أمرا ضروريا، وذلك عند الأخذ في الاعتبار بالكثافة السكانية العالية على شواطئه. وتحتفظ المصاد التاريخية ببعض المعلومات حول تشييد الجسور عبر هذا النهر في أذربيجان، تلك الجسور التي امتدت في كل ربوع البلاد، تعبرها من الغرب إلى الشرق.

كانت جسور خودافرين هي الأكثر شهرة وصلابة بين الجسور العديدة العابرة لنهر أراز. وارتبط هذا الأمر بالموقع الجغرافي المواتي، الذي يتم البناء فيه، وكذلك بالشروط الطبيعية الضرورية

تعود تقاليد بناء الجسور في أذربيجان بجذورها إلى القرون البعيدة. ويرجع السبب في ذلك إلى التضاريس المعقدة وشبكة الأنهار الثرية الممتدة في ربوع البلاد. وفي سبيل توفير حرية الحركة والانتقال في الطرقات المحلية، وأيضا في طرق التجارة الدولية، كان يجري من وقت لآخر تشييد الجسور العملاقة، ذلك بالإضافة إلى بناء الجسور الصغيرة. ويمثل جسرا خودافرين أشهر نماذج العمارة القومية للبلاد، من حيث ملامحها الفنية-التقنية الرفيعة، وأيضا لأهميتهما المحلية والإقليمية. فهذان الجسران العابران لنهر أراز، اللذان صارا يجسدان الحد الفاصل للقرن التاسع عشر، قد تحولوا إلى رمز لوحدة أراضي أذربيجان.

بعد أن زار أذربيجان خلال أعوام 1213، و1220، أطلق الرحالة والجغرافي العربي الشهير ياقوت الحموي على أراز اسم «النهر المدهش»، وكتب الحموي قائلا: «يقال أنه في أران، وعلى امتداد نهر أراز، كانت هناك آلاف المدن القائمة». وعلى الرغم من المبالغة في

قوبستان



جعفر عباسي
الأستاذ في الهندسة المعمارية،
والعضو المراسل لأكاديمية العلوم القومية الأذربيجانية

جسور خودافرين

